



ومن يكتُمها..

في كلِّ زمان ومكان، يصيرون دائماً
دريئة من يريد أن يتعلَّم الرِّماية.

حسين - مدير الدَّائرة - هو المجرم
الحقيقيّ، هو الذي يرتشي ويقبض
باستمرار، كأنَّ المؤسسة مزرة أبيه،
يتصرّف فيها كما يشاء، يسرق من
أموالها في كلِّ يوم، جميع موظفي
المؤسسة يعلمون ذلك علم اليقين،



د. وليد قصاب

ولكن من ذا الذي يجرؤ منهم أن يتكلم؟ يعرفون
جميعاً نفوذ الرجل، وأقاربه وأصدقاءه الذين في
السلطة، يخشون بأسه، وإن بأسه لشديد.

ولابد أن تلبس التهمة أحداً من الضعفاء، وعمر
هو الحائط الواطئ الذي يستطيع أن يركبه كلُّ
أحد. في همس غير مسموع دار بينه وبين عادل،
أحد زملائه الطيبين في المؤسسة: قال له عادل، وهو

إنه يعرف الحقيقة كلّها.. لا يخفي
عليه خيط من خيوطها.. واضحة
أمامه مثل الشمس في رابعة النهار..
يعرف «عمر» مثلاً يعرف نفسه. وقد
يرتاب في نفسه ولا يرتاب فيه.. عمر
أنقى من ضوء الفجر، وأصفى من الماء
الزُّلال. صديقه في الدراسة والعمل منذ
أكثر من عشر سنوات. خبره في مواقف

لا حصر لها. ما عرفه إلا نظيف اليد واللسان، عفّ
الجوارح والفؤاد.

بريء براءة الذُّب من دم ابن يعقوب. لفقوا له
هذه التهمة الحقيرة؛ لأنه رجل ضعيف، لا حول له
ولا طَوْل. صاروا جميعاً إلباً عليه؛ لأنه لا سند له، ولا
دعم، ولا وساطة، فصار لهم طُعماً سهلاً، لا بواكي
له. وكذا - كما يقول زميلهم عادل - شأن الضَّعفاء

يتلفت يمنة ويسرة، ويخافت بصوته خشية أن تفتح الجدران أذانها فتسمع شيئاً:

- حسين مدعوم.. واصل.. له ظهر قوي.. وراءه الـ...، وغمز بعينه، فبادله عثمان الهمس قائلاً:

- ولكن عمر بريء.. أنت تعرف ذلك يقيناً لماذا يؤخذ بها..؟

قال عادل:

- لأنه لابد أن يحملها أحد..

قال هامساً يتلفت هو الآخر يميناً وشمالاً:

- لماذا لا يسجلونها ضد مجهول كما يحصل أحياناً؟

وبالهمس نفسه أجاب عادل:

- لأن حسين - مدير الدائرة - يريد إيهام المسؤولين بمهارة من مهاراته...

ولم يكمل، فقال عثمان مستفهماً:

- ماذا تقصد؟

- أقصد أن مدير الدائرة المحترم يريد أن يسجل قدرته على اكتشاف الاختلاس في دائرته، وأن عينه ساهرة تستطيع اكتشاف المتلاعبين وتقديمهم إلى العدالة.

* * *

كان ضميره يخزه وخز الإبر وهو يرى بأم عينه الخنّاق يضيق حول صديقه البريء عمر.

تُخفى أوراق، وتُختلق مستندات، وتُزور وثائق، وتُغير توقعيات، والجميع يشارك أو يسكت، كلّ يتملق المجرم الحقيقي خائفاً من نفوذه، أو طامعاً في نواله.

خرست كلمة الحق على ألسنة الجميع، كلّ عارف، ولكنّ الطيبين صامتون، والأشرار مشاركون في الزور.

عثمان يعرف الحقيقة، وتحت يديه أدلة ومستندات؛ فقد كان - بحكم موقعه في المؤسسة -

مطلعاً على كل شيء.. هل يجوز أن يظل ساكناً عن الحق؟ أياكم الشهادة؟ وإذا فعل ونجا من عذاب ضميره الذي أصبح سوطاً يجلد له ليل نهار أينجو من عذاب الله؟

﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ * وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة- ٢٨٣)، كان داخله يشتعل كالبركان،

ولا بد ممّا يخمد له هذا البركان وإلا احترق به.

كان عادل - أقرب المقرّبين إليه - يحسّ بما يعمل في داخله، وكان خائفاً عليه أن يتورط فيفكر في مواجهة الإعصار. همس له ذات يوم، وقد أتيحت لهما خلوة لا تراهما فيها عين من العيون المبتوثة في كلّ مكان، محدّراً:

- إياك أن تلعب بالنار يا عثمان.. أنت رجل ضعيف مثل عمر، قوتك وقوت عيالك في أيديهم، بل حياتك كلها في أيديهم، هؤلاء قوم ظلمة يسحقون كلّ من يقف في وجههم.

قال من قلب محروق:

- وعمر يا عادل؟ هل ندعه حتى يلتف حبل المشنقة حول عنقه، أو يلقي في غياهب السجن؟ قال عادل محدّراً:

- إياك أن ترتكب هذه حماقة..

قال عثمان محتداً:

- حماقة؟

- حماقة.. لأنه لن يستمع إليك أحد.. صوت القوي فقط هو المسموع.. ستلقى مثل مصير عمر من غير أن تنقذه..

- وهل أكتّم الشهادة؟

قال عادل محاولاً امتصاص انفعال عثمان:

شهادتك ستجر عليك الهلاك.. ستدخلك السجن مع عمر ولن تنفعه في شيء.. فأبقى على نفسك.. الحي أولى من الميت.. تذكر أهلك عيالك، ثمّ أضاف:



باطلاً؟

يقول له عادل الساكتُ
الأخرسُ مثلهم في إحدى
محاوراتهما:
- لأن حاميتها حراميتها.

لا تفارقه صورة عمر وهو
يُساق ذليلاً خائفاً، وقد وضعوا
القيود في يديه، وسحبوه من
وراء مكتبه كما يُسحب الكلب
الأجرب. كان يلتفت إليهم
مستجداً، وهو يقول:

- كلكم تعرفون اللصَّ
الحقيقي، ولكنكم تخافون من
قول كلمة الحق. لماذا صرتم
أجبن من الصراصير؟ أيها الساكتون على الباطل ألا
تخافون بطش المنتقم الجبار؟

أخذته سنة خفيفة من نوم، ثم صحا فزعاً. كان
صوت عمر يدوي في أذنيه كصافرة إنذار:
- أيها الساكتون على الباطل! ألا تخافون بطش
المنتقم الجبار؟

ثم صدح في أذنيه صوت الإمام وهو يقرأ في
صلاة الفجر: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ * وَمَنْ يَكْتُمْهَا
فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ (البقرة- ٢٨٣). هب من فراشه
واقفاً، وعجل يتوضأ ليدرك صلاة الصبح مع الإمام.
عاد من الصلاة، فدخل غرفة أولاده يقبلهم ويدعو
لهم واحداً واحداً. همس بينه وبين نفسه وهو يغادر
غرفتهم:

لكم الله.. ولي الله..

ثم دخل غرفته، فلبس ثيابه في صمت، وغادر
المنزل متوجهاً إلى المحكمة ■



- وقد تنفعه وأنت خارج السجن أكثر ممّا تنفعه
وأنت معه في داخله.

لم يستطع عثمان أن ينام في تلك الليلة. غداً
موعد الجلسة التي يُستمع فيها إلى الشهود، ثم يُنطق
بالحكم.. كلهم ضد عمر، كلهم بخيل بالحق لا يريد
أن يُصّحّر به.

كلهم يهادن القوي، ويتملقه، ويخشاه، كلهم نفى
أي شبهة عن حسين، جعله - وهو المجرم - كحمامة
بيضاء. أي ظلم هذا؟ لا تزال أسماك القرش تأكل
الأسماك الصغيرة.

لماذا يسرق حسين، وينهب أموال الدولة ليل نهار
ولا يحرك أحد ساكناً؟

أما يكفيه ما عنده من عمارات وعقارات... و...
و...؟ ألا يشبع هؤلاء الكلاب؟ إن خزائنهم مثل جهنم
كلما امتلأت قالت: هل من مزيد؟ ولماذا قُمّوا الناس،
وجبّئوا، وعمّوا، حتى صاروا يرون الباطل حقاً والحق